أمير الجيوش

(١)

هو الشارع الذى يمتد من باب الفتوح إلى شارع الأزهر، وهو الذى يسمى أيضًا شارع المعز لدين الله الفاطمى. لا شك فى أنه كان قد تم أخيرًا عمل مجهود ضخم جدًا لترميم آثار تلك المنطقة، خاصة فى شارع الدرب الأصفر حيث تقع بيوت السحيمى والخرزاتى ومصطفى جعفر، وهى بيوت كلها عمرها لا يقل عن ثلاثة قرون. يعود الفضل فى ذلك إلى هيئة الآثار فى المقام الأول، ولكن هناك كذلك جهود الدكتور (أسعد نديم)، وهو دارس للفولكلور المصرى، وحاصل على درجة الدكتوراه من أمريكا فى هذا العلم، وقد أنشأ مركزًا لحفظ تراث المنطقة، وهذا المركز يقع فى مواجهة مدخل بيت السحيمى.

لا شك كذلك فى أن مجهودًا ضخمًا قد بذل خلال السنوات الأخيرة (٢٠٠٠-٢٠٠٥) فى ترميم مجموعة مساجد هذا الشارع الطويل، شارع أمير الجيوش، وكذلك امتداده فى شارع الغورية حتى باب زويلة، ويبلغ الطول الإجمالى للمسافة بين باب الفتوح وباب زويلة أكثر من اثنين كيلو متر، وتقع على جانبيه عشرات المساجد والأسبلة والزوايا والتكايا والمدارس والحمامات، وهى كلها تحف معمارية تعود إلى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية. والسؤال المطروح حاليًا هو : هل يمكن أن نطمع يومًا ما فى أن يقتصر هذا الشارع على المشاة ؟ وذلك رغم وجود مئات المحلات والدكاكين والورش، وكذلك آلاف من البشر المترددين على تلك المحلات، ومن العاملين فيها، هل هذا ممكن ؟

(٢)

كنت قد ذهبت سنة ١٩٧٦ إلى العباسية، للإقامة فيها مع جدتى (والدة والدتى)، والتى كانت تقيم فى شارع صغير وهو شارع مسعود المتفرع من شارع العباسية الرئيسى، وهو الشارع الذى يقع فيه المدخل الرئيسى لمدرسة الحسينية الثانوية (مدرسة فؤاد الأول سابقًا – وهى المدرسة التى ذهب إليها أنور السادات عندما كان طالبًا فى التوجيهية)، وذلك عندما قُبلت أوراقى فى كلية طب عين شمس، منقولا إليها من كلية طب طنطا. وكنت قد بدأت أتجول على الأقدام فى المنطقة، لاستكشاف شوارعها وحواريها ومبانيها الهامة، خاصة تلك القصور الجميلة التى كانت ما تزال تقع فى حى العباسية الشرقية، وهى المنطقة التى سكن فيها باشاوات القاهرة عند إنشاء حى العباسية على زمن الخديوى عباس حلمى الأول حوالى سنة ١٨٥٠.

وكنت مغرمًا كذلك بشدة بالتجول على الأقدام فى منطقة قاهرة القرون الوسطى، أى فى المسافة بين بابى الفتوح شمالا وزويلة جنوبًا. كنت أنزل من شقة شارع مسعود لأسير ربع ساعة عبر ميدان الجيش وشارع الحسينية، حتى أصل إلى باب الفتوح، ومن هناك أتمهل السير جدًا متأملا ذلك المنظر المبهر للأبراج المحصنة لأسوار القاهرة الشمالية، الأبراج المستديرة فى حالة باب الفتوح، والمربعة فى حالة باب النصر المجاور له، ثم كذلك أمرّ بجوار منذنتى جامع الحاكم بأمر الله، ثم أمر بسلسلة من الأسواق الشعبية الصغيرة لليمون والبصل، ثم للمشغولات النحاسية، ثم مجموعة البيوت العثمانية (السحيمى... إلخ)، ثم الجامع الأقمر إلى اليسار (فاطمى)، ثم قصر باشتاك والذى تم تجديده مؤخرًا، ثم مجموعات برقوق وقلاوون إلى اليمين (مملوكى)، ثم بقايا منشآت الصالح نجم الدين أيوب إلى اليسار (أيوبى)، مثل القبة والضريح والمدرسة، ثم أمر بمنطقة خان الخليلى،

وأعبر شارع الأزهر فى الممر العلوى، لأستأنف المشى فى شارع الغورية حتى باب زويلة (والذى يسمى كذلك بوابة متولى الحسبة أى موظف المكوس والضرائب المفروضة على البضائع المارة عبر الباب وهو الذى يعرف حاليًا باسمه المختصر باب المتولى)، وأتذكر المسكين (طومان باى) وكيف دافع عن القاهرة حتى آخر جندى لديه ضد العثمانى سليم الأول سنة ١٥١٧، وأترحم على روحه، ثم أمر أمام مسجد الصالح طلائع، وهو أحد المساجد المعلقة القليلة فى مصر (أى أن أسفل المسجد كانت توجد بعض الدكاكين فى مستوى الشارع، ويكون المسجد بذلك فوق مستوى الشارع وهكذا يسميه العامة مسجدًا معلقًا).

أدخل بعد ذلك إلى منطقة التكايا (وهى البيوت المخصصة لإقامة الدراويش)، وكذلك منطقة القيساريات (وهى الأسواق المغطاة بأقمشة أو بأخشاب تحمى المترددين على السوق من حرارة الشمس)، لأصل إلى أسواق الخيامية والمغربلين، ثم يتقاطع الشارع الذى أسير فيه بامتداد أمير الجيوش والغورية مع شارع محمد على، وصولا إلى منطقة سوق السلاح، ومنطقة القلعة ومساجد السلطان حسن والرفاعى. هى رحلة طولها حوالى خمسة كيلو مترات، من منزلى فى العباسية إلى القلعة، كنت أقطعها عدة مرات كل شهر، وأسرح بخيالى فى شخصيات التاريخ، وكذلك فى شخصيات روايات نجيب محفوظ ويحيى حقى وجمال الغيطانى وإسماعيل ولى الدين، ثم قررت أن أدرس دبلوم دراسات عليا فى الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة (القسم الحر)، وبعد ذلك قررت أن أترك مهنة الطب وأن أعمل فى مهنة الإرشاد السياحى.

(٣)

ذهبت أخيرًا فى مارس ٢٠٠٥ لزيارة بيت السحيمى، مع مجموعة من أصدقائى الفرنسيين، وأظهرت كارنيه المرشد السياحى عند مدخل البيت، ودخلنا إلى الحديقة الداخلية للبيت، وتحدثت قليلا إليهم عن المعمار الإسلامى بشكل عام، عن السلاملك والحراملك، وعن المشربيات والمقرنصات، وفى تلك الأحوال عادة ما يحضر إليك موظف من البيت لتحيتك، فتعرف أن هذا الموظف هو الذى سيقوم معك بعمل جولة داخل المنزل، وهو الذى يشبه المتاهة، إذ إن هناك عشرات الممرات المتقاطعة على مستويات مختلفة وفى كل الاتجاهات، بالإضافة إلى الأبواب السرية، وكذلك الأبواب الوهمية، إلخ.

ولكن هذا اليوم فى مارس ٢٠٠٥ لم يحضر أحد، فذهبت إلى شخص يقف فى الفناء ويبدو أنه من موظفى المكان، قلت له (أريد موظفًا لاصطحابى فى الجولة داخل المنزل، وأنا أدفع إكرامية خمسة جنيهات)، أنا أفعل ذلك عادة عن طيب خاطر، وذلك لأنى أعرف أن مرتباتهم ضعيفة، وقد تفضل ذلك الشخص الواقف فى الفناء باصطحابى فى الجولة. المهم أننى أثناء الزيارة اكتشفت أن المسألة لم تعد فقط مسألة أن يصطحبنى موظف فى زيارة عبر هذه المتاهة، ولكن الغريب أن الأبواب كانت كلها تقريبًا مغلقة، إذ إنه للمرور من حجرة إلى أخرى، كان هذا الموظف يستعمل أحد المفاتيح لفتح الباب المغلق، ثم يستعمل مفتاحًا آخر فى فتح الباب التالى له وهكذا، أى أنه حتى لو كان المرشد يعرف طريقه جيدًا داخل المنزل، فإنه لا غنى له عن هذا الموظف الذى يحتفظ بمفاتيح الأبواب المغلقة، والذى يجب أن يراضيه أولا ليفتح له أبواب الجنة بعد ذلك، وهكذا أصبحت الإكرامية إجبارية .

obeikandl.com

باريس

(١)

كنا قد قررنا، أنا وصديقى وحيد، أن نذهب إلى فرنسا لشراء سيارات، فقد سمعنا أن أسعارها هناك أقل بكثير من أسعارها فى إنجلترا، وكنا قد ادخر كلٌ منا مبلغًا يقدر بحوالى أربعمائة جنيه استرلينى من العمل فى إنجلترا خلال أشهر الصيف، وكان ذلك المبلغ لكل منا كافيًا جدًا لشراء سيّارة لكل منا وذلك حسب أسعار صيف ١٩٧٤.

بدأنا فى التخطيط لمشروعنا وذلك أولا: بالحصول على فيزا لكل من فرنسا وإيطاليا (وذلك بغرض أن تكون إيطاليا بديلا عن فرنسا إذا لزم الأمر). ثانيًا: بتحويل تذاكر العودة بالطائرة من (لندن – القاهرة) إلى (روما – القاهرة) ثالثًا: بشراء تذاكر قطار (لندن – باريس) رابعًا: بالاستفسار عن أسعار شحن السيارات من موانئ فرنسا وإيطاليا. وأدركنا حقيقة إمكانية تنفيذ المشروع.

وفى يوم ٢٦ أكتوبر حزمت حقيبتى وودعت أصدقائى فى المكان الذى كنت أقيم فيه خارج لندن (ستيفن إيدج)، وكنت حسب الميعاد فى محطة فيكتوريا فى قلب لندن. أخذنا القطار إلى مدينة فولك ستون ومنها عبرنا المانش على معديات هوفركرافت كانت تقطع الخمسين كيلو مترًا حتى ميناء كاليه فى فرنسا فى حوالى ساعتين، وأتذكر أننا كنا آخر من غادر المعدية إلى القطار الذى سيحملنا إلى باريس، وذلك كان بسبب قلق السلطات الفرنسية من باسبورنا المصرى!!! وصل القطار إلى باريس السابعة مساءً، وعن طريق مكتب استعلامات المحطة، حجزنا حجرة بسريرين فى لوكاندة نجمة واحدة

فى حى بيجال، ولم نكن نعرف أنه حى الدعارة الرسمية!!! فوجئت طبعًا بسبب سذاجتى الريفية الطنطاوية، بمنظر الفتيات المتبرجات شبه العاريات الواقفات على عتبات علب الليل، لم أكن إلا فى العشرين من عمرى (وبدون أى تجارب). لم يعلق وحيد صديقى على شىء، إلا أننا بوصولنا إلى اللوكاندة، وعندما أبديت رغبتى فى الذهاب للفرجة على برج إيفل، نصحنى هو بأن النوم أفضل لنا بعد هذا اليوم المتعب، صدقته ونمت. اكتشفت صباح اليوم التالى أنه كان قد ذهب وحده لرؤية فتيات الليل!! خيانة عظمى (عالحلوة والمرّة مش كنا متعاهدين).

بعد ذلك بحوالى عشرين عامًا، كنت أقيم فى منزل أسرة زوجتى فى (أنيار)، وهى ضاحية تقع فى شمال غرب باريس، خرجت من البيت لأسير فى اتجاه نهر (السين)، وجدت نفسى أمام كوبرى (كليشى) فعبرته، ثم مشيت حتى بداية خط المترو الذى ركبته محطتين حتى محطة (ميدان كليشى)، ثم مشيت فى (بولفار كليشى) مارًا أمام محلات الجنس، وهى نفس المحلات التى سبق لى المرور أمامها عدة مرات خلال الأعوام الماضية، منذ أن أصبحت معتادًا على قضاء إجازاتى الصيفية فى باريس، وذلك بفضل زوجتى الفرنسية وأقاربها الباريسيين.

ولكن المرور أمام هذه المحلات هذه المرة مختلف، وذلك حيث إن تلك هى أيامى الأخيرة فى باريس لهذا العام، وهذه المرة كنت مصرًا على اكتشاف هذا المكان مهما كان الثمن. اكتشفت أن هناك ثلاثة أنواع مختلفة من هذه المحلات. أولا: المحلات التى تبيع الشرائط والمجلات إلخ .... ثانيًا: محلات العروض الحية، أى أن تقوم الفتاة بخلع ملابسها بأسلوب (الاستربتيز)، أى قطعة قطعة أمام الزبائن، ثالثًا: وهو النوع الأكثر تكلفة، وهى المحلات التى تسمح لك بمجالسة

الفتيات. قررت ذلك اليوم أن أبدأ التجربة بالنوع الثانى .

هذه المحلات فى أغلب الأحوال هى من النوع المتنقل، أى التى ليس لها مكان ثابت، وإنما هى سيارات تشبه (الكارافان) كبير الحجم، والذى تنصب أمامه خيمة من القماش بارتفاع السيارة، تغطى تلك الخيمة مساحة تكفى لوقوف الزبائن. دفعت ٣٠ فرنكًا رسم الدخول لسيدة تجلس إلى مائدة صغيرة عند مدخل الخيمة. دخلت الخيمة لأجد أربعة أو خمسة رجال واقفين ينظرون فى اتجاه منصة مرتفعة، يصل تقريبًا ارتفاعها إلى مستوى رءوس الرجال، وذلك حتى يكون لمس جسم المرأة صعبًا، لو فكر أحدهم فى ذلك، ثم إن هناك كذلك رجلا مفتول العضلات (بودى جارد)، يظهر بين الحين والآخر من خلف ستارة، وكان يرتدى فانلة خفيفة بحمالات تظهر جيدًا عضلات كتفيه اللذين كانا يغطيهما الوشم .

كانت الفتاة سمينة ومتعجلة، فقد أنهت خلع كل ملابسها فى مدة لا تزيد عن ثلاث دقائق، وكانت ترقص على أنغام قطعة موسيقية، ثم جمعت ثيابها واختفت خلف الستارة، لتظهر بعدها ومع بداية مقطوعة موسيقية جديدة فتاة أخرى، كانت نحيفة جدًا هذه المرة، ثم أن بجسمها آثار عمليات جراحية متعددة، إلا أن ما ضايقنى فعلا هو أن الفتاة السمينة بعد أن ارتدت ثيابها، جاءت لتطلب من الرجال الخمسة الذين كانوا موجودين أثناء أداء فقرتها، والذين أصبحوا ستة بعد انضمامى إليهم، تطلب من كل واحد منهم مبلغًا إضافيًا قائلة إنها تتعب كثيرًا وتقبض ملاليم (قالت: سنتيمات).

لاحظت أن كل الرجال الواقفين كانوا شرقيىْ الملامح، لم أحتمل المكان أكثر من ذلك وخرجت مسرعًا، مدركًا أن البؤس ليس فقط فى العالم الثالث.

(٢)

عدت بعد ظهر اليوم الأخير لى فى باريس هذا العام، إلى زيارة واحد من محلات النوع الثالث، ولكنى قبل الدخول فيه احتسيت كوبين من البيرة، وذلك حتى أجد الشجاعة الكافية للدخول، وقد شجعنى كذلك أننى وجدت أن تسعيرة الدخول قد انخفضت من مائة فرنك أمس إلى خمسين فرنكًا فقط اليوم، ولم أفهم السبب. بعد دفع الرسم المقرر، دخلت ولم يكن فى جيبى بعد ذلك إلا حوالى خمسين فرنكًا أخرى، وقد عمدت إلى عدم إحضار أى مبالغ إضافية معى خوفًا من أن أتورط فى مصروفات إضافية بدون إرادتى. بمجرد دخولى حضرت فتاة شقراء ترتدى ميكروجيب لتصحبنى من الباب إلى سلم يؤدى إلى صالة تحت الأرض، وكان المكان مظلمًا لدرجة أنك لا ترى موضع قدميك، أضواء خافتة متناثرة موجهة إلى السقف. وبمجرد جلوسى جاءت فتاة أخرى لتسألنى إن كنت أُفضل احتساء البيرة أم عصير البرتقال ؟ قلت (برتقال) .

بعد دقيقة حضرت فتاة أخرى لتجلس بجانبى، وطلبت منى أن أقترب منها، فقلت لها (أنا لا أستطيع رؤيتك) وذلك لأن العين تحتاج إلى بضعة دقائق حتى تتعود على خفوت إضاءة المكان. قالت (هل أنت فرنسى ؟) قلت (لا أنا مصرى) قالت (أنا جزائرية واسمى سونيا) قلت (هذا اسم جميل ولكننا يمكن أن نجده فى أى مكان فى العالم) قالت (اسمى الحقيقى هو فضيلة، هل أنت متزوج ؟) قلت (نعم) قالت (مصرية؟) قلت (لا فرنسية) قالت (هل هى معك هنا؟) قلت (نعم) قالت (أين؟) قلت (نحن نسكن أنيار) قالت (ياه بعيد جدًا).

حضر فى نفس هذه اللحظة شخص وقف أمامى قائلا (هل نطلب عصيرًا للآنسة؟) قلت (نعم ولكنى أريد أن أعرف أولا السعر) قال (لا تخف هذا ليس شمبانيا) قلت (نعم ولكن السعر) قال (٢٠٠ فرنك) قلت

(أنا آسف هذا غالٍ جدًا) وفى نفس اللحظة تحركت الفتاة من جانبى. سألته ثانيًا (وهذا العصير الذى قدمته لى الفتاة عند دخولى) قال (١٠٠ فرنك) قلت (هذا أيضًا غالٍ جدًا) قال (ولكنك طلبته) قلت (أنا لم أطلب شيئًا) قال (ليس هناك مجال للنقاش، هذا العصير الذى طلبته ستدفع ثمنه) قلت (أنا لم ألمسه، خذه) قال (ليست هناك فائدة) قلت (لكن السعر الذى تعلنوه على مدخل المكان هو ٥٠ فرنكًا) قال (هذا فقط رسم دخول، أنت فى كباريه وكل ما تطلبه تدفع حسابه، أنت لست فى كنيسة، هل كنت تعتقد أنك تدخل كباريهًا لتجد فتاة تجلس بجانبك، وتقدم لك العصير، وفتاة أخرى تخلع ملابسها أمامك، كل هذا بخمسين فرنكًا، وذلك لتذهب وتقص مغامراتك على زوجتك وأطفالك ؟)

لم أكن قد لاحظت وجود فتاة على خشبة المسرح قد بدأت نمرة (استربتيز)، فأنا عند دخولى لم أكن قد لاحظت وجود مسرح وذلك بسبب ضعف الإضاءة، وكان الرجل قد تركنى عندما انتهى من الكلام معى، وذهب إلى زبون آخر. تأملت الموقف لمدة ثوانٍ قصيرة، وألقيت ببصرى لحظة على تلك الفتاة المسكينة التى على المسرح، كانت نحيفة جدًا فأنا أرى عظام جسمها، ثم إن حركاتها روتينية جدًا، وليس فيها أى إغراء. أخرجت كل العملات المعدنية التى فى جيبى، وتحركت فى اتجاه الباب، ولحسن الحظ فإن الرجل الذى كان قد تحدث إلىّ، كان مشغولا بالمناقشة العنيفة مع الزبون الآخر الذى يبدو أن موقفه كان أكثر صعوبة من موقفى، تحركت نحوى فتاة قلت لها (هذا هو كل ما فى جيبى) ووضعته فى يدها، واقتربت من الباب وذلك عندما قال لى الرجل (ابق ولا ترحل) قالها بلهجة ودودة ساخرة، كأنه يريد أن يقول لى أن ما دار بيننا من حوار ليست له قيمة حقيقية، وإنما إنه روتين العمل، قلت له (لا، أنا لا أريد البقاء، أنا راحل) وخرجت إلى ضوء الشارع، ومن الرصيف إلى السلالم التى تقودنى إلى محطة المترو.

(٣)

سافرت إلى فرنسا ثلاثين مرة، مستفيدًا بالجنسية الفرنسية وبالباسبور الفرنسى الذى حصلت عليه سنة ١٩٩٦، وكذلك بالتخفيض على تذاكر الطيران فى بعض الشركات التى تعاملت معها كمرشد سياحى، وكذلك مستفيدًا بالإقامة المجانية فى باريس بفضل أقارب زوجتى، وبفضل بعض أصدقائنا الفرنسيين. كانت أغلب تلك السفريات لمدة أسبوعين، أو لمدة شهر. إلا أننى كنت قد بقيت فى باريس ثلاثة أشهر سنة ١٩٩٢، وكذلك أربعة أشهر سنة ١٩٩٤، كما أننى بقيت فى مدينة نيم فى جنوب فرنسا ثلاثة أشهر خلال العام ١٩٩٩. هذه هى أطول فترات إقامتى المتصلة فى فرنسا. وقد استفدت من كل فترات إقامتى الطويلة تلك فى شئ ما. ففى المرة الأولى اشتركت فى الدورات الدراسية الصيفية المكثفة فى جامعة السوربون. وفى المرة الثانية اشتركت فى جمعية أصدقاء اللوفر، وفى السينماتيك الباريسى. وفى المرة الثالثة درست طرق العلاج بالوخز بالإبر الصينية فى مستشفى كارمو فى مدينة نيم .

كان امتحان القبول فى السوربون من أربعين درجة. كان نصفها مخصصًا لموضوع إملاء عن فنانى الحركة التأثيرية الفرنسيين، وحصلت فيه على ١٩ من ٢٠، وعشر درجات مخصصة لتمارين القواعد حصلت فيها على ٩ من ١٠، وعشر درجات مخصصة لقراءة نص شفهيًا أمام لجنة من ثلاثة أساتذة وحصلت فيها على ٩ من ١٠، وهكذا كان إجمالى الدرجات يسمح لى بحرية اختيار مواد الدراسة، فاخترت المناهج التالية:

أولا: تاريخ فرنسا خلال القرن الأخير (من الغزو البروسى سنة ١٨٧٠ إلى بداية حكومة ميتران الأولى سنة ١٩٨١). وكان قد طُلب من كل دارس عمل بحث عن موضوع من اختياره، فاخترت موضوع

المقاومة الفرنسية للاحتلال النازى (١٩٤٤/٤٣).

ثانيًا: تاريخ فن التصوير الفرنسى خلال القرن الأخير (من بوجين ديلاكروا سنة ١٨٥٠ إلى بيكاسو سنة ١٩٥٠). وخلال الثلاثين ساعة المخصصة لهذا المنهج، قمنا بزيارة عشرة متاحف فن حديث فى باريس. وكان البحث الذى قدمته فى هذه المادة عن طريقة معالجة الفنان Delaunay سنة ١٩٢٠ لموضوعات سبق أن عالجها غيره من الفنانين (مثلا موضوع فتيات أفنيون Avignon بينه وبين بيكاسو وكل منهما مر بالمرحلتين السريالية والتكعيبية).

ثالثًا: ثلاثون ساعة مخصصة لطرق تحليل النصوص الأدبية، درسنا خلالها نصوصًا لكل من (ستاندال – بلزاك – فلوبير – بودلير – موباسان). خمس صفحات لخمسة مؤلفين، أى قضينا فى كل صفحة ست ساعات. وكان من نصيبى إلقاء تعليق شفهى لمدة نصف ساعة عن قصيدة (دعوة إلى السفر Invitation au voyage) لبودلير.

(٤)

إثر حادث أليم، أصيبت كلير بكسور مضاعفة فى الساقين فى ١٩٩٤/٣/٢٩، وتم إجراء الإسعافات الأولية لها فى مستشفى بولاق أبو العلا (تجبير الكسور وتسكين الألم)، ولكنها نقلت فى نفس الليلة إلى مستشفى المعادى لعمل الأشعات والتحاليل اللازمة (مثلا أشعة مقطعية على الدماغ لمعرفة سبب تسرب قطرات من سائل النخاع الشوكى عن طريق فتحة الأنف)، كما أنها كانت قد اضطرت إلى البقاء أسبوعًا كاملا فى العناية المركزة، حيث كانت تجرى لها عمليات غسيل كلوى مستمرة عبر غشاء البريتون، بسبب توقف الكلى عن العمل. كان الوضع صعبًا جدًا حين قرر جراح العظام

(أستاذ فى طب القاهرة) إجراء عملية بتر للساق اليمنى، عندها اتصلنا بأهلها فى باريس، فأرسلوا لها فى ٢٤ساعة طائرة خاصة بصحبة طبيب وممرض عن طريق شركة Europe assistance. تم إجراء عمليات متعددة فى الساقين فى مستشفى بيشا بباريس، وتم إنقاذ كلير من عملية البتر، رغم مرور تسعة أيام بين الحادث وذلك التدخل الجراحى.

أقمت خلال أربعة أشهر (من عشرة أبريل إلى نهاية يوليو ١٩٩٤) إلى جوار كلير، تنقلت معها بين المستشفيات فى باريس وفى ضواحى باريس، وكان بعض الأصدقاء الفرنسيين قد تركوا لى مسكنهم فى باريس، حيث إنهم كانوا يقيمون فى القاهرة حتى شهر يوليو من ذلك العام. كان مسكنهم فى الطرف الشرقى لباريس، وحتى أذهب إلى زوجتى فى مستشفى بيشا فى الطرف الشمالى الغربى للمدينة، كنت أستعمل خطىْ أتوبيس، رقم ٧٥ حتى وسط المدينة، ثم رقم ٨١ حتى المستشفى. فى اليوم الأول اكتشفت أن المكان الذى أغيِّر فيه الأتوبيس يقع تمامًا أمام متحف اللوفر، وحيث إن ميعاد زيارة زوجتى اليومى هو من الثالثة إلى السادسة بعد الظهر، فقد قررت أن أستفيد من الفترة الصباحية، من العاشرة صباحًا إلى الثانية بعد الظهر، فى زيارة متحف اللوفر تقريبًا كل يوم، ولمدة حوالى أربعة أشهر، نعم لقد قمت بزيارة اللوفر حوالى مائة مرة، وذلك بدون أى مبالغة، وكل مرة لمدة لا تقل عن ثلاث ساعات، ورغم ذلك فأنا لا أستطيع أن أدعى أننى قد شاهدت كل شئ فيه. كنت قد حصلت على اشتراك فى جمعية أصدقاء اللوفر، وكان وقتها يساوى ٢٢٠ فرنكًا فرنسيًا، أى ما يساوى سبع مرات قيمة تذكرة الدخول، إلا أنه يمكن للمشترك الدخول به عددًا لا نهائيًا من المرات خلال عام كامل، وكذلك يمكن الدخول من باب خاص بدلا من الوقوف فى طابور الدخول المعتاد، فى الإجازات أو فى أيام الأحد.

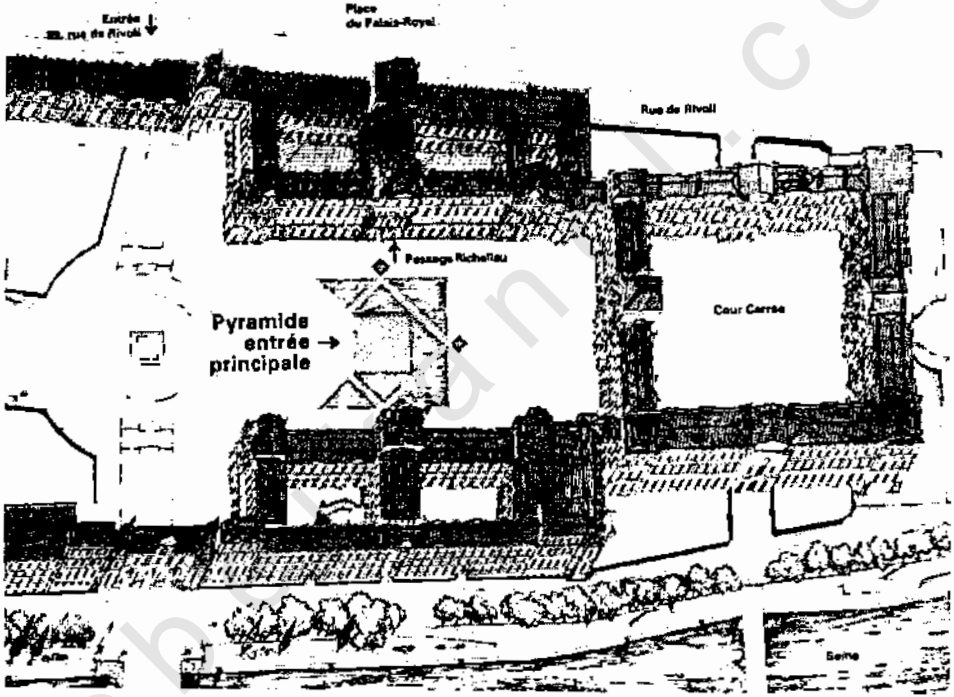
Entrée
Place
du Palais-Royal
Rue de Rivoli
Passage Richelieu
Pyramide
entrée →
principale
Cour Carrée
Seine

البحر الأحمر

(١)

فى يونيو ١٩٦٣، قامت أسرتنا الصغيرة (أبى – أمى – أنا – أخى) بعمل رحلة استثنائية تمامًا، تعتبر واحدة من أجمل ذكريات طفولتى، وكان ذلك بالاشتراك مع بعض عائلات أطباء طنطا، إذ ذهبنا فى رحلة إلى البحر الأحمر. بدأت الرحلة من محطة باب الحديد بالقاهرة، حيث أخذنا القطار إلى السويس، وقد أمضينا الليلة فى أحد فنادق المدينة، وفى صباح اليوم التالى صعدنا على ظهر المركب عايدة ٣، وقد كانت تلك المركب مسئولة عن نقل تموين الفنارات فى خليج السويس.

أتذكر جيدًا خط سير الرحلة التى دامت أسبوعًا. أولا من السويس إلى مدينة الطور، ثانيًا من الطور إلى الغردقة، وذلك مرورًا بفنارات الأخوين وشدوان وغيرهما. وكانت مدن تلك المناطق فى ذلك الوقت من الستينيات شبه مهجورة، وذلك بالمقارنة بالوضع الحالى لتلك المدن والتى شهدت رواجًا كبيرًا فى الثمانينيات. فى الغردقة مثلا لم تكن هناك أى مبانٍ على الإطلاق إلا بعض الشاليهات المتناثرة على شاطئ البحر، وكذلك متحف للأحياء المائية به هيكل ضخم لعروس البحر!! سأعرف بعد ذلك من خلال برنامج (عالم البحار) فى التليفزيون المصرى، كيف أن الدكتور (حامد جوهر) كان أول من حاول لفت الانتباه، منذ أوائل السبعينيات، إلى تلك الثروة السمكية الهائلة التى يتمتع بها البحر الأحمر. ما زلت أتذكر ملامحه، النظارة الطبية واللحية، وكذلك لثغته الخفيفة فى نطق بعض الكلمات.

أتذكر كذلك جيدًا أننا (أى زبائن عايدة ٣) كنا السياح الوحيدين فى البلد وعلى الشاطئ!! ولم يكن أهل البلد يرون أى سياح على الإطلاق عدا زبائن (عايدة ٣). كان ساحل البحر الأحمر كله مناطق عسكرية، الدخول إليها يستلزم تصريحًا من جهات أمنية عديدة. كنا فى حالة حرب مع إسرائيل، كما أن مسألة تهريب المخدرات كانت تخيف المسئولين. كان عمرى فى ذلك الوقت هو التاسعة والنصف تمامًا، ومع ذلك أتذكر بوضوح شديد جدًا كيف أنه كانت لدىّ مشاعر فياضة تجاه فتاة من فتيات المجموعة، كانت ابنة أحد أطباء طنطا، طفلة تكبرنى بعام واحد، ولكنها كانت رشيقة جدًا وذات شخصية مستقلة، كان اسمها (فيفيان) .

(٢)

لم أعد بعد ذلك إلى الغردقة إلا سنة ١٩٨١ عندما عملت كموسيقى فى النايت كلوب فى حفلات افتتاح شيراتون الغردقة، كان ذلك خلال شهر أبريل، وكنت ما زلت أؤدى السنة التدريبية الإجبارية للأطباء المتخرجين حديثًا، والمعروفة باسم سنة الامتياز، وعندما جاءتنى الدعوة من الفرقة الموسيقية بالغردقة، كنت فى قسم أمراض النساء والولادة، وهو القسم من الدراسات الطبية الذى لم أتمكن أبدًا من التصالح معه، فقبلت فورًا السفر إلى الغردقة، وأعطيت ملاحظ القسم خمسة جنيهات ليملأ خانات الغياب بدلا منى، ووعدته بمبلغ مماثل عند العودة.

كانت المدينة قد بدأت تدب فيها الحياة (الله يرحمك يا سادات)، وكنت أنزل مع الفرقة الموسيقية فى أحد شاليهات الشاطئ، وأقطع ساعة المغربية مسافة ٥ كم ذهابًا ثم عودة، بين الشيراتون وقرية مجاويش (وكانت تحت الإدارة الفرنسية لنادى البحر المتوسط Club

Med بعقد مدته خمس سنوات)، ولم يكن هناك بامتداد هذه الكيلومترات الخمسة (صريخ ابن يومين)!! عادت بعد ذلك قرية مجاويش السياحية إلى الإدارة المصرية مما شجع المستثمرين المصريين على بناء مئات القرى السياحية بامتداد عشرات الكيلومترات (الله يرحمك يا سادات). بعد ذلك بسنوات وقع فى يدى دليل سياحى فرنسى يقول: " .... للأسف أن ذهبت إدارة قرية مجاويش إلى الأيدى المصرية التى لا تتمتع بالكفاءة اللازمة "!!

(٣)

كنت أعمل كمرشد سياحى فى مدينة الأقصر، وكنت أنتهز فرصة الإجازة بين برنامجين سياحيين (البرنامج قد يكون أسبوعًا أو أسبوعين) لأذهب ولو لمدة يوم واحد إلى شاطئ البحر الأحمر فى مدينة سفاجا، والتى تقع على بعد حوالى ٢٢٠ كم من الأقصر. كنت أفعل هذا خصوصًا بداية من سنة ١٩٩٠، وهى السنة التى استأجر فيها أخى محلاً سياحيًا (بازار) فى إحدى قرى سفاجا السياحية.

تحركت من فندق كليوباترة الذى يقع أمام قسم شرطة سفاجا الساعة السابعة صباحًا، أكلت بلحًا مجففًا بالفستق، ومشيت إلى المكان الذى التقيت به فيه لآخر مرة، وهو على شاطئ البحر أمام مرسى اليخوت، وأنا أعرف أنه يذهب إلى هناك فجر كل يوم لممارسة تمارين اليوجا الصباحية، ولكنى لم أجده، مشيت على شاطئ البحر فى اتجاه القرى السياحية شمال سفاجا، مشيت حوالى ساعة متمهلا، وكانت أقدامى تغوص فى الرمال، وبسبب وجود معسكر جيش على الشاطئ لم أستطع إكمال الطريق مشيًا واضطررت إلى إكمال الطريق بتاكسى. وصلت إلى قرية مينا فيل ومن باب المدخل اتجهت يمينًا إلى الدكان رقم ٣، وجلست على عتبة بابه. ومن خلال زجاج

الفاترينة تأملت محتويات الدكان، ما زالت لديه تقريبًا نفس تشكيلة العام الماضى، نفس زجاجات الشامبو التى أفسدتها حرارة الشمس، نفس الكارت بوستال والكتب السياحية التى يعلوها التراب، نفس الكارتونات الفارغة والأوراق الممزقة فى الأركان، نفس مناشف اليد القذرة على الكراسى، كما لو كان هذا الدكان يستعمل كمخزن وكحجرة نوم فى نفس الوقت!!! أحسست بقدر من الحزن!!

كنت ما زلت جالسًا على عتبة الباب عندما حضر مرتديًا سروالا أخضر فزدقيًا، وبلوفر بدون أكمام وقميصًا أبيض، حالقًا شعر رأسه وبحذاء خفيف، فأحسست أن له مظهر شاب رياضى، استقبلنى بالأحضان. بقينا فى الدكان حوالى ساعتين، واحتسينا أقداح الشاى، وتحدثنا عن مشكلته مع إدارة القرية بسبب عدم دفعه للإيجار منذ ثمانية أشهر!! وذلك بسبب أخطاء الإدارة فى التسويق للقرية، تلك الأخطاء التى أدت إلى عدم وجود إشغال فى القرية، وبالتالى إلى عدم وجود زبائن للدكاكين. ذهبنا بتاكسى إلى الشقة التى يسكن فيها وهى فى مساكن مصانع الفوسفات، على الطريق الرئيسى بامتداد الطريق الصحراوى الذى يربط سفاجا بقنا، والذى ينتهى عند البحر وعند الجامع الضخم القائم على البحر. أما مسكنه هو فيقع أمام المدرسة الثانوية المختلطة. كل البيوت دور أرضى فقط إلا أن هناك بعضها يضاف إليه حاليًا دور أول. وقد استأجر عصام هذا المسكن بدون فرش بمبلغ مائة جنيه فى الشهر من أحد موظفى شركة الفوسفات.

بكين

(١)

علاقتى بالصين تبدأ منذ سنوات طويلة، فكنت دائمًا أهتم بمشاهدة الأفلام الصينية فى مهرجان القاهرة السينمائى منذ السبعينيات، ثم اشتركت فى مجلة "الصين المصورة"، وفيها معلومات عن الحياة المعاصرة فى المدن الصينية، ثم اشتركت سنة ١٩٩٨ فى دورة تعلم اللغة الصينية، فى مقر جمعية الصداقة المصرية - الصينية فى وزارة الزراعة بالدقى، حين كان الدكتور وإلى - وزير الزراعة السابق - رئيسًا لهذه الجمعية، وذلك قبل انتقال مقرها إلى حى جاردن سيتى، وكذلك حاولت خلال ثلاثة أشهر من صيف سنة ١٩٩٩، تعلم طرق العلاج بالوخز بالإبر الصينية، فى المستشفى الجامعى بمدينة (نيم) الفرنسية، وهكذا فعندما أعلنت نقابة الأطباء بالقاهرة، فى صيف سنة ٢٠٠٤، عن تنظيم رحلة إلى الصين، سارعت إلى الاشتراك بها.

طرنا أولا إلى كوالالمبور حيث أمضينا ثلاث ليالٍ، ثم طرنا من جديد ست ساعات حتى وصلنا إلى بكين، وكانت صالات مطار بكين فى يوليو ٢٠٠٤ مكتظة عن آخرها بأفواج شباب من كل الدول الآسيوية، والذين كانوا قد جاءوا إلى الصين للاشتراك فى دورة كرة قدم كأس الأمم الآسيوية، وهكذا فإنه عند خروجنا من المطار فوجئنا بزحام السيارات الشديد، بسبب هذه الأعداد الهائلة من البشر.

فى الطريق من المطار إلى العاصمة لاحظت الآتى ١- شاهدت

فى الحدائق شبابًا وفتيات يقبّلون بعضهم بعضًا علنًا، فأدركت أن الصين أقرب إلى القيم الغربية منها إلى القيم الشرقية. ٢- ثم إن الفتيات يتحركن بحرية تامة فى الشوارع، فى ملابس خفيفة وشورتات ساخنة، ويقدن دراجاتهن دون أن يلاحقهن الرجال بالنظرات أو بعبارات الغزل، ثم إننا شاهدنا سيارات نقل عام تقودها سيدات، فأدركت أن وضع المرأة الصينية، أفضل من وضع المرأة المصرية. ٣- وذلك بالإضافة إلى الشوارع العريضة، والسيارات الحديثة، والأبراج السكنية ذات الألوان البهيجة، والحدائق العامة الكبيرة فى كل مكان.

نزلنا فى فندق نوفوتيل، وهو يتمتع بإدارة فرنسية، ويقع فى قلب المدينة، وعلى بعد كيلو متر واحد من ميدان السلام السماوى الشهير، حيث يوجد القصر الإمبراطورى القديم، والمدينة المحرمة المحيطة به، وكذلك "قبر ماوتسى تونج"، بالإضافة إلى أهم متاحف العاصمة، متحف تاريخ الشعب الصينى، وكذلك متحف الفن الصينى التقليدى. وحيث إننا كنا قد تناولنا وجبة الغداء فى الطائرة، فقد كان لدينا بعض الوقت المتاح حتى ميعاد العشاء. وهكذا خرجت من الفندق وعبرت الطريق العريض من أماكن عبور المشاة، ولاحظت التزام السيارات التام بإشارات المرور، رغم عدم وجود عساكر مرور، وكذلك لاحظت وجود عدد لا حصر له من الدراجات.

كنت قد قررت الذهاب فى جولة على الأقدام حول الفندق، مستعينًا بخريطة صغيرة توزع فى استقبال الفندق، دخلت أول حديقة قابلتنى، وكانت الساعة حوالى الخامسة مساءً، وكان الجو لطيفًا، فوجئت بامتلاء الحديقة بالبشر من كل الأعمار، هل كان هذا بسبب انتهاء ساعات العمل ؟ كان الشباب من الجنسين يرقصون معًا على أنغام قادمة من كاسيت صغير، موسيقى صينية تقليدية ولكن على

آلات حديثة، بتوزيع حديث، وإيقاعات حديثة، وكان المتقدمون في السن يجلسون على الحشائش، في دوائر كبيرة، يتحدثون معًا ويضحكون، بدا لي كما لو أن كل الصينيين يعرفون بعضهم بعضًا معرفة جيدة، إلا أن حقيقة الأمر هي أن الصينيين يحبون بعضهم بعضًا، ويتحدثون هكذا معًا بسهولة، حتى لو كان اللقاء عابرًا في حديقة. إلا أنهم ما زالوا، ومنذ الاحتلال البريطاني لهم سنة ١٨٤٠، وبسبب ما عرف بحرب الأفيون، لا يثقون تمامًا في الأجنبي، فالآن وأنا أسير بينهم، أصبحت محط أنظار الجميع.

عدت إلى الفندق ٧م، حين تحرك الأتوبيس يحمل المصريين إلى مطعم إسلامي، فوجئت بوجود عدد كبير من المطاعم الإسلامية في العاصمة، ففي واقع الحال فإن عددًا كبيرًا من الأطباق الصينية يدخل فيها لحم الخنزير، ولذلك فإن الاحتياط واجب، وهكذا فإن كل وجبات الغداء والعشاء لمجموعة نقابة الأطباء المصرية، كانت في مطاعم إسلامية، حيث كنا نجلس حول موائد مستديرة، ويعلو كل مائدة قرص زجاجي مستدير، يتحرك بحرية في الاتجاهين، ليدور في حركة دائرية كاملة إذا دفعته بيدك، إلى اليمين أو إلى اليسار، وهكذا فإن الخدم كانوا يضعون أطباق الطعام على هذا القرص، وكان الجالسون حول المائدة يحركون القرص، ليحصل كل منهم على نصيبه من طبق الطعام الذي يريده، وكانت الأطباق غالبًا تتكون من لحوم مشوية بأشكال مختلفة، وسمك وجمبري وسلطات وخضراوات مسلوقة وحساء وأرز.

بعد العودة إلى الفندق حوالي ٩م، عدت من جديد إلى الشوارع لأسير حوالي عشرين دقيقة حتى ميدان السلام السماوي، وبقيت فيه أتأمل المباني الضخمة المضاءة بالكشافات، حتى تمام الساعة ١١م حين انطفأت كل هذه الكشافات فجأة، وعرفت أن هذا الشعب ما زال

ينام مبكرًا، ويحرص على عدم استهلاك الطاقة فيما لا يفيد. وفى طريق عودتى إلى الفندق، وبدلا من عبور الطريق فى أماكن عبور المشاة، قررت أن أتخذ طريقى عبر نفق أسفل الشارع، وهنا عرفت أن الصين ما زالت تعانى من مشاكل اجتماعية واقتصادية، إذ وجدت عددًا من الفقراء وذوى العاهات يفترشون أرض النفق، ويعدون أنفسهم لقضاء الليلة فيه، وذلك رغم أننا فى قلب العاصمة، وعلى بعد خطوات من أهم منطقة سياحية بها.

(٢)

إلا أن أعراض المدنية الحديثة وأمراضها هى الأخرى كانت قد بلغت الصين، فبالإضافة إلى كل أنواع محلات الوجبات السريعة من كنتاكى وماكدونالد وبيتزا هت، هناك كذلك ما يدعو إلى الشك فى مسألة تسهيل الدعارة. كنت جالسًا على مقعد حجرى فى تقاطع تجارى هام، حين جاءت إلىّ فتاة جميلة جدًا، حيتنى بإنجليزية سليمة قائلة (ألا تريد أن تذهب معى لزيارة معرض للفن الصينى) قلت (أشكرك) قالت (سيعجبك) قلت(أنا مرهق وأريد أن أبقى جالسًا) قالت (تعالى إذن معى إلى هذا المقهى لنشرب كوبين من الشاى ونتحدث) كانت فى حوالى العشرين من عمرها، ولكنى شعرت قليلا بالخطر بسبب إصرارها وملاحقتها لى، قلت (يجوز أن يحدث ذلك بعد قليل ولكن اتركينى الآن أستريح قليلا) حيتنى من جديد بمنتهى الذوق وغادرت المكان، بعد خمس دقائق جاء شاب فى حوالى السابعة عشرة من عمره يقول (هل يمكننى أن أتحدث معك قليلا بالإنجليزية) قلت (أهلا وسهلا) قال (أنا أدرس الإنجليزية وأريد أن أمارسها قليلا مع من يجيد التحدث بها) قلت (أنا آسف فأنا لا أجيد التحدث بها، فهى ليست لغتى الأصلية، وقد أذكر لك كلمة بطريقة نطق خاطئة)

قال (هل أبقى معك قليلا ؟) قلت (لا أشكرك أنا أفضل أن أبقى وحدى) فانصرف دون أن يحييني، فبدا لى الأمر كأنه شئ مخطط له بدقة، أولا الفتاة، ثانيًا فى حالة ما إذا كان الزبون ليس مهتمًا بالفتيات، فهم يرسلون إليه ذلك الشاب الصغير!

ثم بالإضافة إلى ذلك فإن المرشدة الصينية التى صحبتنا فى رحلتنا إلى زيارة سور الصين العظيم، ويقع على بعد حوالى ٨٠ كم من بكين، انشغلت طوال الطريق (حوالى ساعة)، بالحديث عن حجر كريم اسمه "الجاد Jade"، كيف يتكون فى الطبيعة، وكيف يكتشفه البشر، وكيف يمكن تنقيته من الشوائب، وكيف يمكن تشكيله فى أعمال فنية جميلة، مثل تماثيل صغيرة وحلى للنساء إلخ ...، وحاولنا مرارًا أن نقاطعها لنسألها (ما هى الصلة -التى لم تكن تبدو لنا واضحة- بين هذا الحجر الكريم، وبين زيارة سور الصين العظيم؟)، إلا أنها كانت تتجاهل هذه الأسئلة، وتستأنف حديثها كأن شيئًا لم يكن، إلى أن اتضح لنا كل شئ قبل الوصول إلى موقع سور الصين العظيم بدقائق، حين توقف الأتوبيس أمام بناء على جانب الطريق، وطلبت منا المرشدة الصينية النزول قائلة (سنزور الآن مصنعًا ومعرضًا لأحجار "الجاد"، حيث يمكنكم شراء كل ما تتمنوه بالدولار أو باليورو)، إذن فإن كل ما كانت تقوله فى الأتوبيس ليس له أى صلة بسور الصين العظيم، وإنما هى تقوم بعمل دعاية لمنتجات ذلك المصنع، الذى قضينا فيه حوالى ساعة، محسوبة من وقت زيارتنا للسور، وقد أقدمت بعض نساء المجموعة على شراء بعض الحلى، وقبضت المرشدة عمولتها.

ملحوظة أخيرة تتعلق برحلة نهرية قمنا بها فى المساء، حين وقفنا على رصيف النهر ننتظر دورنا فى الصعود إلى المركب، فجاء الأطفال الذين كانوا يلهون على الرصيف، أو يبيعون أزهارًا وحلوى،

ووقفوا طويلا أمام الأطباء المصريين، دون أية كلمة، وتساءلنا ماذا يريدون؟، وبدا لنا أنه كان قد أصابهم نوع من الذهول، وعندما أدركنا أن وقوفهم لم يكن إلا أمام الرجال ذوى الكروش الضخمة، فهمنا سبب ذهولهم، إذ إنهم لم يسبق لهم فى حياتهم كلها رؤية رجال بمثل هذه الكروش. وفى واقع الأمر فإنه خلال جولاتنا لمدة أسبوعين فى ست مدن صينية، لم نتمكن على الإطلاق من رؤية شخص صينى واحد بكرش.

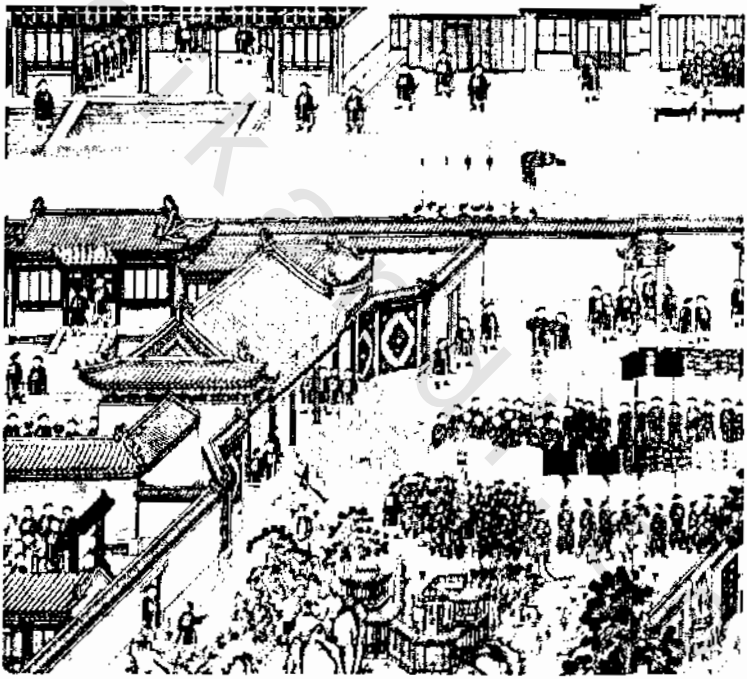

بورسعيد

(١)

كنا قد سافرنا بالقطار من طنطا إلى بورسعيد، وكنت لأول مرة فى حياتى أسافر فى عربات الدرجة الثالثة، ورغم أننا كنا ما نزال فى سنة ١٩٦٦، وكان عدد سكان مصر حوالى ٢٧مليون نسمة، إلا أن عربات الدرجة الثالثة كانت مزدحمة جدًا. وعند وصولنا إلى محطة سكة حديد بورسعيد، المعروفة باسم الرسوة، مشينا حاملين حقائبنا، مخترقين شوارع المدينة الهادئة، حتى وصلنا إلى مدرسة القناة الإعدادية للبنين، وكانت هى مقر معسكر أوائل الطلبة فى بورسعيد ذلك العام. كنت منقولا من الصف الأول الإعدادى إلى الصف الثانى الإعدادى.

كان البرنامج اليومى يتكون من: ٧ص استيقاظ وطابور تحية العلم، وألعاب رياضية، ٨ص إفطار، ٩ص محاضرات تثقيفية لمدة ساعتين. أتذكر مثلا حضور الأستاذ (فتحى رضوان) المحامى وأحد وزراء أوائل الخمسينيات، الذى حدثنا عن تاريخ مصر الحديثة. (قرأت له بعد ذلك كتابًا بعنوان "٧٢ شهرًا مع عبد الناصر"، كما أن لديه كتابًا آخر عن سيرته الذاتية بعنوان "خط العتبة")، ١١ص نذهب إلى الشاطئ لممارسة الألعاب الرياضية والسباحة، وكانت هناك كذلك وجبة خفيفة من السندوتشات، إلا أنها لم تكن كافية، وكنت بعد ذلك أذهب وحدى إلى محل فطائر على الشاطئ؛ لشراء فطيرة بالجبنة الرومى كان ثمنها ستة قروش (فى عام ٢٠٠٤ وصل ثمنها إلى ستة جنيهات، السؤال هو هل سيصل ثمنها إلى ستمائة جنيه بعد أربعين عامًا؟).

٤م نعود إلى المدرسة للاستحمام والراحة، ٦م تبدأ الأنشطة المسائية بين جولات حرة فى الأسواق (لم تكن بورسعيد قد أصبحت بعد مدينة حرة، إلا أنها كانت دائمًا ممرًا عالميًا، يمكن أن تقابل فيه بحارة وسياحًا من كل بلاد العالم، يمرون ترانزيت ببورسعيد، فى طريقهم بين آسيا وأوروبا أو العكس)، أو نزهة على الكورنيش، أو على رصيف القنال، أو عبور القنال بالمعدية إلى مدينة بورفؤاد، وهى المدينة التى كانت ما تزال تحتفظ بالحى الأفرنجى كاملا، بمنازله ذات الطراز الأوروبى. ٨م نعود إلى المدرسة للعشاء، والذى كانت تتبعه عادة حفلات السمر، كانت الآلات الموسيقية متوفرة فى المدرسة، لمن يجيد العزف عليها، وكنت قد بدأت منذ عام دروسًا فى العزف على الكمان، مما أتاح لى فرصة إظهار مواهبى الموسيقية. كنا نقدم كذلك أحيانًا فقرات مسرحية، أو اسكتشات غنائية مشتركة (مثل ما كان يقدمه فى ذلك الوقت ثلاثى أضواء المسرح سمير و جورج والضيف أحمد)، أو اسكتشات غنائية منفردة، وهى ما يمكن تسميته بالمنولوج.

وكنت قد حفظت عن ظهر قلب منولوجًا، كان يقدمه منولوجيست فى الثلاثينيات، فقمت ذات ليلة بمنتهى الشجاعة، وصعدت إلى مسرح المدرسة، وأديته بطريقة سليمة من حيث اللحن والإيقاع (محسوبكم ده طالب اتلطم وداب/ طول عمره فى مدارس بين ميرى وكتاب/ واد لخمة وبلية وما بيفتح كتاب/ يوم يحضر مدرسته وباقى الجمعة غياب/ وإن نجح أهى صدفة جت من غير حساب/ تريلام لام تريلام لام/ كان عندى يا خواتى امتحان فى مرة / قلت فى عقلى اتجدعن لا تبقى عرة / وتسقط يا مدهول وتخرج بره/ وتعيش عمرك بائس وحالتك مرة/ وزمايلك يترقوا ويبقوا وزرا / تريلام لام تريلام لام). وكنت قد حفظت هذا المنولوج من جدتى لأمى.

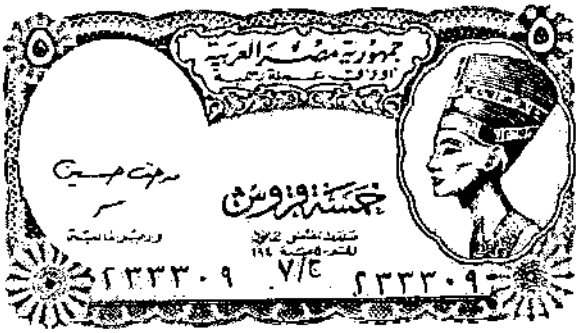
جمهورية مصر العربية
خمسة جنيهات
٢٣٣٣٠٩ ٧/٤ ٢٣٣٣٠٩

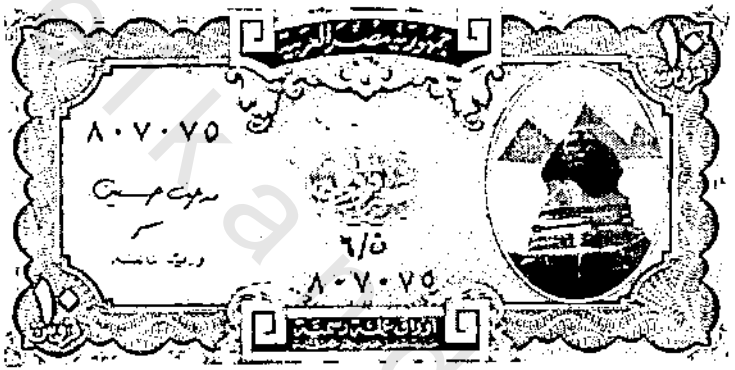
جمهورية مصر العربية
٨٠٧٠٧٥
٦/٥
٨٠٧٠٧٥

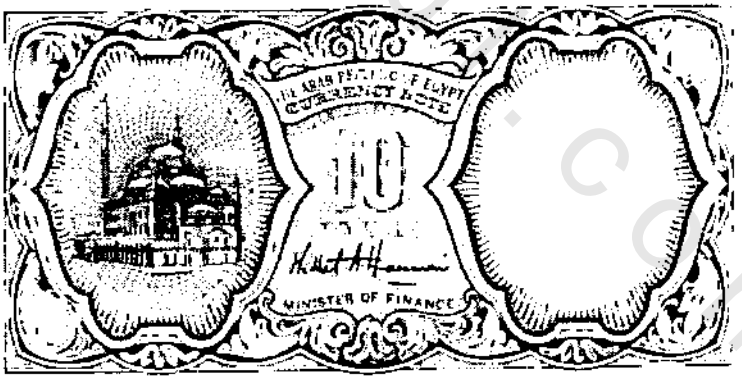
ARAB REPUBLIC OF EGYPT
MINISTER OF FINANCE

(٢)

كنت قد احترفت العزف على الجيتار منذ سنة ١٩٧٧، وكنت ألعب كل ليلة فى محلات شارع الهرم، مع الفرق الغربية من ١٠م وحتى منتصف الليل، فى الباريزيانا والأريزونا وشاليمار والليل والفاندوم. ثم بعد ذلك وبداية من سنة ١٩٨٠، تعلمنا أن نخرج من تلك المحلات، بعد منتصف الليل، سعيًا للعمل مع نمر مختلفة لمغنيين ومغنيات.

وكنت خلال سنة ١٩٨١ أعمل فى فرقة موسيقية مشتركة بين اثنين من المغنيين اللذين كانا يبدآن تاريخهما الفنى فى ذلك الوقت، على الحجار ومحمد الحلو، فكانت هذه الفرقة تذهب فى أول الليل مع أحدهما، وتذهب فى آخر الليل مع الآخر. وهكذا عدت إلى بورسعيد فى صيف ١٩٨١ مع المغنى محمد الحلو، والذى كان له جمهور كبير فى تلك المدينة، حيث ذهبنا مرات عديدة لإحياء حفلات زفاف فى مسارحها المختلفة.

فى ذلك الوقت كانت بورسعيد فى قمة ازدهارها التجارى كمنطقة حرة، فكنا نستفيد من تلك الزيارات فى شراء البدل والبنطلونات. وكنا نستأجر سيارة ميكروباص للفرقة، أما محمد الحلو فكان يذهب إلى هناك فى سيارته مع أخيه. لم يكن محمد يشتكى من تلك المشتريات، طالما وصلنا فى ميعاد مناسب لأداء وصلته الموسيقية فى الفرح، ولكن ذات مرة كان محمد مشتركًا مع المغنية (وردة)، فى إحياء حفل فى النادى المصرى البورسعيدى، وكالمعتاد سافر هو فى سيارته، وسافرت الفرقة فى الميكروباص.

هذه المرة كان العديد من الموسيقيين الآباء يريدون شراء ملابس لأطفالهم بمناسبة دخول المدارس فى سبتمبر ١٩٨١، وكان لدينا اعتقاد لا أدرى مصدره، أن ميعاد فقرتنا على المسرح هو منتصف الليل، وكنا قد وصلنا بورسعيد الساعة ٩م، فقلنا (أمامنا متسع من

الوقت للشراء والفصال لمدة ساعتين على الأقل).

الذى لم نكن نعرفه هو أن ميعاد نمرتنا كان الساعة ٩م، والأدهى والأمرّ هو أن ذلك الحفل كان مذاعًا على الهواء على موجة صوت العرب، وكنا فى خضم الفرجة والمقارنة والفصال، عندما جاءنا سائق الميكروباص يلطم خديه قائلا: (مصيبة سوداء) انزعجنا قائلين فى نفس واحد: (ماذا حدث؟) قال: (راديو صوت العرب يذيع الحفل على الهواء ويقول أنهم ما زالوا منذ ساعة فى انتظار وصول فرقة محمد الحلو). وكانت هذه هى نهاية فرقة محمد الحلو الموسيقية. وفيما بعد سيذهب للبحث عن موسيقيين آخرين غيرنا.

obeikandl.com

بولاق أبو العلا

(١)

أمضيت فى مستشفى بولاق أبى العلا والمعروف كذلك باسم مستشفى المجموعة الصحية حوالى أربعة أشهر، وذلك خلال صيف وخريف عام ١٩٨١. وكنت حتى فى ذلك الوقت واعيًا بأهمية المكان، فقد كان ذلك المستشفى يقع فى مكان متوسط بين عدة أمكنة أخرى لكل منها شخصيته. كنت أصل إلى ذلك المستشفى بسيارتى عن طريق ميدان رمسيس ثم القللى ثم أسير بمحاذاة شريط الترام إلى ثلاجة رملة بولاق حيث أنحرف يسارًا بمحاذاة منطقة سكنية ثم سور مستشفى الصدر حتى أصل إلى مستشفى المجموعة الصحية، وكان كذلك يقع فى مواجهة قسم بولاق، وكان ضباط القسم يستعينون أحيانًا بالأطباء (خاصة الامتياز أمثالى) خلال نوبطشية الاستقبال فى ليالى الشتاء لتحديد ما إذا كان الشخص المقبوض عليه مخمورًا أم لا! وذلك أولا بشم رائحة فمه ثم ثانيًا بأن يطلب منه أن يمشى فى خط مستقيم!

كنت أنتهز فرصة عدم وجود عمل فى المستشفى (كنا قد بدأنا فعلا نعانى من ظاهرة بطالة الأطباء)، وذلك بأن أذهب إلى مبنى دار الكتب الجديد والمطل على النيل والذى لا يبعد عن المستشفى بأكثر من بضع دقائق على الأقدام، كنت أقضى فيه فى بعض الأحيان ساعات طويلة حيث إننى كنت قد وجدت فيه النسخة الأصلية لكتاب (وصف مصر) من تأليف علماء الحملة الفرنسية (بونابرت) ويعود إلى ذلك الوقت بداية حبى لتاريخ مصر القديمة.

وفى بعض الأحيان الأخرى كنت أتخذ مسارًا مختلفًا وذلك بأن أقوم بدورة كاملة حول مسجد سنان باشا، الوالى التركى الذى حكم مصر فى القرن السادس عشر.

هذا الجامع يشبه فى معماره كل المساجد العثمانية التى تعود إلى نفس الزمن، القباب الدائرية والمآذن الشبيهة بالقلم الرصاص.

مرة أخرى أعود إلى ذكر بداية ولعى بتاريخ مصر فى العصر الإسلامى، ذلك الولع الذى سيتجسد فيما بعد فى حصولى على دبلوم دراسات عليا فى الآثار الإسلامية من كلية الآثار جامعة القاهرة.

كنت كذلك أدور أحيانًا فى طرقات وكالة البلح، ما بين الورش والجراجات. ولا أنسى تقاطر صبية تلك الورش على استقبال المستشفى بغرض معالجة جروح قطعية فى اليد أو فى الذراع بسبب الآلات الحادة التى كانوا يستعملونها، وكنت قد تمرنت بما فيه الكفاية على استعمال الغرز فى علاج الجروح القطعية.

(٢)

كنت فى نوبتجية (نوبة عمل ليلية) من ١١ م إلى ٨ ص فى قسم الاستقبال بالمستشفى العام ببولاق أبى العلا، وكنت أقضى فيه الشهر الأخير من سنة التدريب العملى للأطباء (بين الحصول على البكالوريوس والحصول على ترخيص مزاولة مهنة الطب) وهى السنة المعروفة كذلك باسم سنة الامتياز. كان ذلك خلال شهر ديسمبر سنة١٩٨١، وفى ذلك الوقت كانت تلك المنطقة المزدهرة حاليًا والتى تقع بين المستشفى وكورنيش النيل، حيث يوجد مركز التجارة العالمى وكذلك فندق كونراد، ما تزال منطقة مهجورة ليس بها إلا خرابات ومقالب زبالة وأراضى فضاء!! كما أن كورنيش النيل كان لا يزال مظلمًا تقريبًا تمامًا طوال الليل!!! المهم كان يأتينا فى الاستقبال كل

ليلة العديد من حوادث الطريق (الكورنيش) لعابرى سبيل تصدمهم السيارات، وكذلك لشحاذين فقراء فى أسمال بالية يأتى إلينا بهم المارة فى المستشفى غالبًا فى حالة ضعف شديد وأحيانًا فى حالة إغماء!!

وذات ليلة حوالى ٤ ص، جاءت فتاة فى حوالى السادسة عشرة من عمرها يحملها المارة فى حالة غيبوبة، ممزقة الثياب، حافية الأقدام .... لم أفكر إلا فى إسعافها، فقمت بتعليق المحاليل لها (محاليل جلوكوز وملح) منها تغذية ومنها تنشيط للدورة الدموية، وقمت كذلك بقياس العلامات الحيوية (نبض – ضغط دم – حرارة) وأدركت أن حالتها معقولة، ولكنى قمت كذلك بطلب عمل فحوص معملية (صورة دم – أملاح الدم – إلخ) وذلك لمعرفة سبب الغيبوبة الذى كان ما يزال غامضًا....

بعد ذلك وحوالى السادسة صباحًا، حضر نائب الأمراض الباطنية (وهو طبيب أقدم منى بعامين ويعتبر رئيسى المباشر) وسأل من هو الطبيب النوبتجى الذى طلب عمل الفحوص المعملية ؟ وكنا ستة أطباء امتياز قائمين بالعمل، فاتجهت الأبصار كلها إلىّ!!

شعرت أننى فى موقف الدفاع عن النفس! وأنه مطلوب منى تبرير أفعالى!!

قلت: (أنا).

فما كان منه إلا أن وبّخنى قائلا (ما تزال طبيب امتياز وتطلب كل هذه الفحوصات ؟).

قلت: (ولكنى لا أطلبها لنفسى وإنما أطلبها للمريضة).

قال: (ومن هى هذه المريضة ؟).

ثم اتجه ناحية فراشها وبدأ يدس يديه فى أنحاء متفرقة من جسمها، فى جيوب جلبابها باحثًا عن شئ ما!

ثم قال (ثم إنها ليست لديها أية أوراق شخصية، وليس لديها أقارب

فمن سيدفع ثمن هذه الفحوصات ؟).

قلت: (ولكننا فى مستشفى حكومى وهذه الفحوصات مجانية).

قال: (ولكن ليست هناك ميزانية كافية ثم أنه ليست لدينا أماكن كافية لاستقبال كل من هب ودب، سأكتفى هذه المرة بإنذارك ولكن بمجرد أن تنتهى تلك المحاليل – وأشار إلى أكياس الجلوكوز المعلقة إلى أوردة الفتاة– عليها أن ترحل وتغادر المستشفى!).

كانت الفتاة ما تزال فى حالة غيبوبة، ولم نكن نعرف بعد نتيجة الفحوصات المعملية، ولكن بسبب ما قاله نائب المستشفى، كان علينا أن ننقل هذه الفتاة إلى الرصيف أمام المستشفى بمجرد انتهاء المحاليل!!

هذه القصة هى فقط للرد على من يسألنى: لماذا تركت مهنة الطب؟

obeikandl.com